

إِفْصِيحُ الثَّانِي عَشْرَةَ



الاتصال الأعظم (الوحي)



الاتصال الأعظم (الوحي)

كل حديث عن الوحي لن يتعدى ذكر الوقائع والمشاهد والأحداث الثابتة فقط، فلا تحليل ولا توقعات ولا اجتهادات في شأنه؛ لأنه أمر غيبي لا مجال لأي مخلوق أن يضيف فيه أو ينقص، فالخالق قد خلق وقدر وأراد وشاء وحكم ولا معقب لحكمه، قضي الأمر وانتهى، فوجد الإنسان نفسه ماثلاً أمام عالم شهادة يستطيع استكشافه مع الزمن، وعالم غيب يستحيل عليه، والغيب ليس عدماً لمجرد أن الإنسان لا يعلمه، وحتى يؤمن الإنسان بالغيب الذي لا يصل إليه بحال، أذن الله لبعض الحقائق من علم الشهادة أن تكون غيباً مؤقتاً يكتشفه الإنسان بالعلم بفضل ما وهبه الخالق من عقل وبصيرة ليصبح جزء من عالم الغيب المؤقت نفسه شكلاً خاصاً من أشكال الشهادة بمواصفات معينة، وعليه فالنفوس المدركة لعالم الشهادة، عليها أن تقبل بالغيب وبالمنطق نفسه الذي تقبل به الوجود لأشياء تعلمها شهادة دون أن تحسها بمداركها، بل أكثر منها من موجودات لا تعلمها إلا غيباً، وهذا الغيب الوجودي للأشياء الحقيقية هو بذاته حقيقة وجودية لا جدال فيها أبداً.

وقبل الحديث عن الوحي لا بد أن نحدد نقطة الانطلاق الصحيحة إلى فهمه، فنحن هنا أمام أمر غيبي بحت، لا يخضع لشيء من قوانين الأرض ولا نواميس الحياة الدنيا المألوفة ولا لبراهين المنطق البشري، فإذا كان لديك تصور مسبق بأننا سنتحدث عن الوحي هنا بالطريقة التجريبية الحسية، وبالبرهان والمنطق كي نلبي تطلعات خيالك المتعطش للوصول إلى تصور خاص بك قد رسمته مسبقاً في ذهنك الضيق عن كيفية نزول الوحي، وتريد منا محاكاته، وكأننا نختبر الوحي، ونكشف أسراره معتمدين على الميكروسكوب لمعرفة الدقائق، أو التلسكوب لمعرفة الأبعاد، أو على نظريات الفيزياء وسرعة الصوت وسرعة الضوء، وانكساراته والموجات الكهرومغناطيسية، والحادية والحرارة والبرودة والضغط الجوي والتنفس والأكسجين، أو ما ترتب على ذلك من اكتشافات علمية متقدمة، كالهاتف والفاكس والإنترنت والتلكس، إذا كان هذا تفكيرك الذي لا تقبل الحديث عن الوحي إلا على ضوءه، فأنصحك أن تريح نفسك من عناء

قراءة هذا الموضوع، وأن تنتقل فوراً إلى الفصل المقبل، علماً أن الأمر ماضٍ علينا وعليك وفق ما قدر له، وليس متوقفاً على فناعاتك الخاصة به من عدمها، ولكنك ستكتشف في نهاية المطاف حاجتك إلى الإيثار بهذا الوحي كما نزل مهما كانت كلفه المغيبة عنا وعنك، على أنه من أمر ربي وربك، وأنه لا محيص لك ولا مهرب من قبول هذه الحقيقة.

ولأنك مؤمن تؤمن بالقدرة اللامحدودة لله خالق كل شيء، ولا سيما وأنت تردد يوماً وصفاً الخالق ﷻ بأنه: (على كل شيء قدير)، وتعني بذلك أنه قدير على خلق كل شيء لا نعلمه، ولا ندرك قوانينه ونواميسه، ولا نحصرها، فهذا هو المدخل الصحيح لفهم الأمور الغيبية عامة والوحي خاصة، ومن ثم تستطيع مواصلة القراءة هنا، ويكون أمر الوحي قد اتضح لك مجملًا من بدايته، وانتهى الأمر بمجرد استحضارك لعظمة الخالق القادر على كل شيء؛ لأن كل حديثنا عن الوحي سيكون في إطار التذكير بمن يتصف بالقدرة المطلقة، التي أوجد بها الوجود كله بما فيه قوانين الأرض، ولا يعجزه أن يوجد غيرها من قواعد وأنظمة وقوانين ونواميس أخرى لا نهائية في عوالم أخرى غير متناهية أيضاً، والاحتمالات للذهاب في كل اتجاه نعلمه أو لا نعلمه، أو ممكن أن نعلمه، أو ممكن ألا نعلمه أبد الأبد، لكننا متشوقون لشتى المعارف عند لقاء ربنا، ولذلك كان لزاماً علينا التزود بالإيمان بالله، وبما أنزل للوصول إلى هذا المنتهى المعرفي الجميل الذي تنكشف لنا فيه الحقائق، يقول (يوهان فيتشة)^(١): «إن معرفة الوحي انطلاقاً من مبادئ العقل النظري مستحيلة، لكنها ممكنة انطلاقاً من قوة الشوق؛ أي الإيمان بعقيدة ما»^(٢).

ليس بالضرورة أن تكون هذه الأقدار المقدر من القادر على كل شيء مطابقة ولا مشابهة ولا مقارنة لقوانين الحياة الدنيا وعالمنا المشهود، ولا حتى تصوراتنا وخيالاتنا:

(١) يوهان فيتشة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) الموافق (١١٧٦ - ١٢٢٩ هـ) فيلسوف ألماني الألمانية المنبثقة من مدرسة الفيلسوف الألماني الشهير (إيمانويل كانت) يُعدّ العقل هو جوهر الوجود وله دراسات عميقة في الوعي الذاتي وله مساهمات سياسية أسهمت في نشوء القومية الألمانية: (Stanford Encyclopedia of Philosophy).

(٢) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال: (كانت: من العقل الخالص إلى الإيثار الخالص) للكاتب: محمد المصباحي نقلاً عن مقالة فيتشة في (نقد الوحي)، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢ م، ص ٦٧.

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] وكلما تسرب إلى تفكيرك التعجب من أخبار الغيب مقارنة بالمألوف، تذكر أنك أمام أمر الله وكفى، إنه الأمر الذي أجابت به الملائكة زوجة إبراهيم (سارة) عليهما السلام، عندما قابلت الخبر غير المألوف دنيوياً بقولها متعجبة منه: ﴿ يَوَيْلَئِي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢] قالت ذلك عندما بشرها الله بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فلم يجيبوها على استفسارها بنعم، بل قفزوا إلى الاعتراض على تعجبها من ذلك، فكان ردهم: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣].

وهكذا لا يبقى للإنسان سوى تناول الوحي فقط من زوايا التعريف به دون الغوص في أسراره الغيبية التي عليه أن يؤمن بها مسلماً ومصداقاً لخبر السماء، وهذا الموقف منه لا يتعارض مع جهود من يتناول أمر الوحي من زوايا معرفية تقليدية، مثل تعريفه اللغوي بأنه (الإعلام السريع الخفي)، وأن أنواعه المستنبطة من معاني القرآن إما أن يكون إلهاماً فطرياً للموحى إليه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرٌ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] أو إلهاماً غرائزياً للكائن الحي: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] أو ما يوحيه الله إلى ملائكته: ﴿ ۝١١ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢] أو حتى وسوسة الشياطين فيما بينهم التي تسمى وحياً: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١] ونحو ذلك من تفاصيل بحثية توجد غالباً في كتب تتناول موضوع الوحي من زوايا تختلف عما قصدنا توضيحه هنا من أن الوحي نفسه هو ناموس غيب رباني نستقبله دون أن ندرك كيفية نزوله، ويجب على الإنسان أن يؤمن به وفق التعريف الاصطلاحي له، أي إنه إعلام الله لأنبيائه بما يريد أن يبلغه عباده من وحي أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة، وتبقى كيفية نزول الوحي وتفكيك مراحلها وفهم عجائبه والاطلاع على أسراره، من علم الغيب الذي أصبح الإيمان به من مناط الابتلاء والامتحان الغيبي، ولن يستقر هذا الإيمان به إلا بعد استيفاء ثلاث مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى، الإيمان المطلق بالله وجوداً وقدرة وأسما حسنى وصفات عليا، ومن آمن بأن الله على كل شيء قدير، آمن بأن الله لا يعجزه شيء على الإطلاق، وأن

أمر الوحي يسير على من خلق السماوات والأرض، وأن خلقها أكبر من خلق الناس وأنبيائهم والوحي، كم هو ضروري أن نفهم فهمًا جيدًا هذه العبارة المتكررة في القرآن، آيات تتلى في ختام صلواتنا اليومية: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

والمرحلة الثانية، أن الوحي بالجملة والتفصيل سيقى من علم الغيب الذي لا يخضع مطلقًا للقوانين الطبيعية الدنيوية المتعارف عليها، فلا يمكن أن يصل العلم الدنيوي إلى فك شفرات غموضه وأسراره الغيبية أبدًا، وهذه مشيئة الله وأمره وقدره وحده لا شريك له سبحانه.

والمرحلة الثالثة، أن الوحي نفسه عظيم إلى درجة أنه يوجب الإيمان بأن الرسول المبلغ عن الله ما هو إلا مجرد وسيط أمين وناقل مبلغ عمن هو أعلى منه مقامًا، ويبلغ الوحي بأمانته وصدق مطابق لما يمليه عليه الوحي، وهو خائف أشد من خوفنا من مرسلها ﷺ، ووجل من سيده الأعظم الذي قال له: ﴿ وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ [٤٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] وقال له أيضًا: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥] لقد شاء الله، واختار، وقدر أن يكون هذا هو الوحي، وأن يكون التبليغ بهذه الطريقة، ولو شاء، وقدر غيرها لكان ذلك وهو يحكم ويختار سبحانه ولا معقب لحكمه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التقصص: ٦٨].

الوحي فرع عن الإيمان بالله

لا فائدة من الدخول في أي نقاش جدلي حول حقيقة الوحي قبل حسم القضية الأولى، وهي تأكيد الإيمان المطلق بالله تعالى، فإذا حُسمت الأولى فقد حُسمت الثانية والثالثة والمئة والألف تبعًا لها، هذا ما يجعل تكرار التذكير بهذه الحقيقة الضرورية، ضرورة في كل فصل من هذا الكتاب؛ لأننا لا نستطيع المضي قدمًا في جميع الموضوعات المتناولة من أمور الغيب دون اصطحاب هذا الإيمان المنقذ والاستئلال بظله عن وهج

الحيرة والتيه المحوشة في هذا الوجود، إنك عندما تؤمن بالله، وتؤمن بصفاته الكمالية المطلقة، ومنها أنه القدير القادر، فأنت تقر بأنه يفعل كل شيء لا تستطيع أنت فعله، بل ولا تخيله أو تتصوره، وأنه لا يعجزه شيء يعجزك أنت فعله، ولا ينتظر قدره تكليفاً ولا إذناً من أي ذي شأن سواه في الوجود، لا بد أن يستقر هذا في القلب بعيداً عن الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والسفسطة البشرية.

إذا لم تنطلق من هذه المنصة الإيمانية الصلبة قبل التطرق إلى أي شأن غيبي، فلن تصل من خلال العقل وحده إلى شيء يطمئنك في أمور الوحي قطعاً، فإيمانك بالله سابق على إيمانك بالوحي منه، وإذا لم يكن إيمانك بالله وفق الصفات الكمالية المطلقة مستوعباً معانيها ودلالاتها الباهرة، فأنت لا تؤمن حق الإيوان بالله خالقك وخالق عقلك الذي تفكر فيه وخالق الكون الذي تعيش فيه، فإذا أدركت قدرة الله من عظمة ما قدره وخلقه من حولك لما تعرف وما لا تعرف من الموجودات، هنا فقط سيسهل عليك فهم نواميس أسرار الغيب كلها ومنها الوحي، وستقبلها وتلقاها بقلب مقبل غير مدبر، مطمئن غير خائف، وحينها ستقف عند حد التعريف المفعم بالإيوان والتسليم بأن الوحي إرادة الله واختياره وأمره، وأنه تنزل بالكيفية التي اختارها الله القادر على كل شيء أيضاً، فمن أوجد هذا الوجود، وأداره، وقدره بهذا الأحكام لا يعجزه أن ينزل وحيًا وكتابًا، ويختار رسولاً، بل هذا أهون عليه بكثير، وعلى هذا التسليم الحق قام الإيوان في أسمى درجاته وأولاه.

نزول الوحي من علم الغيب

ابتداء الوحي ومضمونه واصطفاء الرسل الذين يوحى إليهم والكيفية التي ينتزل بها الوحي كله من أمر الله وإرادة الله ومشية الله وحده لا شريك له، وليس لنا معشر البشر منه شيء سوى التسليم، ولأنه خارق للمألوف والمعتاد، فمن الطبيعي أن تستقبل خبر الوحي بشيء من التعطش الخاص لمعرفة ما وراء هذا الغيب، وهذا الشعور

مني ومنك أمر طبيعي جداً، كما أسلفنا من قبل وليس جديداً على بني جلدتك، فقد عجب من الوحي أمم ممن قبلنا لأنهم أخضعوا ناموس الوحي الغيبي لقوانين الدنيا المحسوسة، فوقعوا في الحيرة والبلبلية، فقالوا: ﴿ أَمْ نُزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُفُّوْا عَذَابِي ﴾ [ص: ٨] فاستغربوا كيف ينزل الذكر من الله إلى رجل من الناس، دون أن يستحضروا قدرة الله ومشيئته واختياره في ملكه، التي منها أنه اصطفى من الناس رسولاً، وأرسله نذيراً بالذكر لمن يتقيه من عباده لكي يدخله في رحمته، فما العجب؟ وجميع هذه المعاني اختصرت بخطاب بلاغي عجيب في هذه الآية الكريمة التي قال فيها نوحٌ لقومه: ﴿ أَوْحَيْتُمُ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٣] وسيبقى كل تعجب وتساؤل أمراً طبيعياً ما لم يقصد منه مقدمة لتبرير الكفر والجحود والإنكار، كما حصل مع بعض من ضلوا عن سواء الصراط.

ليس لنا من علم الوحي إلا ما أخبرنا عنه ربنا فقط، والإيمان المطلق بالوحي والتصديق به والتسليم بكل كيفية نزل بها وتقبله، كما جاء من الله العظيم، مخرج آمن وخيار أوحده ينجو به المرء من ظلمات إخضاعه لمدارك الناس المحدودة وعقولهم وأحاسيسهم القاصرة عنه وعمما سواه من الغيبات، ولا شيء أخطر على الإيمان بالوحي من إخضاعه خطأ لعالمنا المحسوس وقوانين الطبيعة، وحيث إنه لا مجال لإدراكه عقلياً ولا حسياً، فسيجد الإنسان نفسه وفق هذا المنهج الخاطيء حائرًا؛ لأنه لم يستوعب كيفية نزوله عقلاً، فتنبعج به الأفكار والخيالات عشوائياً في كل اتجاه، وهنا يجد الشيطان مداخلة بالوسواس؛ لأنه لا يريد منك أن تصل إلى الحق والحقيقة، فتستسلم لله مؤمناً به ومصداقاً لرسله ووجيهه، يجزئه جداً أن تعلنها صريحة مدوية، ويجب عليك أن تقولها دائماً هكذا كما أرشدك القرآن الكريم: ﴿ ءَأَمْنَا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] بهذه الكلمات الصريحة يكون إيمانك بالوحي سهلاً سلسلاً مطمئناً مريحاً، هذا هو المدخل الآمن والوحيد لفهم الوحي والإيمان به، دون أن يجد المرء في نفسه متكلفاً أي حرج في ذلك، ومن ثم يمكننا الانطلاق من هذه القاعدة الإيمانية إلى أي تفاصيل أخرى ترسخ إيماننا بالوحي وغيره.

أما إذا أخبرنا الله عن كيفية ما عن حقيقة هذا الوحي فالإيمان بها من الإيمان بالله في حدود ما يمكننا فهمه وإدراكه، لقد أخبرنا ربنا ﷻ أن للوحي ثلاث مراتب: الأولى هي الوحي المجرد، وهو ما يصل إلى قلب الموحى إليه دون شك منه بأنه من الله، والثانية هي الإيحاء مباشرة ومن وراء حجاب: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] ومرتبة ثالثة هي الوحي بواسطة الملك ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] والمرتبة الأخيرة هي التي تنزل فيها القرآن الكريم كله، وحيًا منزلاً من عند الله وفق نواميس وأقدار ربانية، يستحيل تصورهما كيفًا، ولكن لا يستحيل الإيمان بها عقلاً ممن يؤمنون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

إن لك أيها الإنسان، مجالاً في هذا الوجود لن تتجاوزه، وقدرة لا تطيق ما زاد عنها، وموعداً مع الله لن تُخلفه، وأنك لم توجد لكي تعلم أو تدرك ما لم تكن مخلوقاً للعلم به أو إدراكه، ولأنه لا يوجد إنسان يستطيع إدراك الوحي بوسائل الحس المادية، فقد توقف العقلاء وحكماء المفكرين والفلاسفة حائرين عند مواجهتهم لحقائق فوق قدراتهم البشرية، ولا يمكن التوصل إلى فك أسرارها دون تدخل من الوحي، لكن المسلمين وبسهولة توصلوا إلى أنه لا يمكن تفسير أسرار (الوجود) ونواميس هذا الكون إلا من خلال بوابة الإيمان بالله القوي القادر، وتصديق خبر السماء الواصل إلى الناس عن طريق الصّديقين الأنبياء، واعتبار ذلك هو المدخل، بل هو الأصل في التوصل إلى معرفة ما فشلت فيه المحاولات البشرية المتابعة عن طريق الاستقراء والبرهان العقلي وحده من قبل آلاف التمييزين والأذكياء، الذين لم يتركوا فكراً ولا وسيلة علمية إلا وسلكوها منذ خمس مئة عام قبل ميلاد المسيح ﷺ وإلى يومنا هذا، فلم يصلوا إلى شيء سوى كم هائل من الاحتمالات والفرضيات التي يتقاذفها المعترضون عليها نقداً في بعض الأحيان ورفضاً تاماً في أحيان أخرى.

الرسول وأمانة التبليغ

من أهم أسباب اضطراب الإيذان بالوحي أن يتصور الإنسان أمرًا عظيمًا وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: ٥] تصورًا قاصرًا، وكأنه مجرد تواصل بين طرفين متكافئين، كالتراسل البريدي والبرقي بين الأصدقاء أو حتى الاتصال بين أعظم ملوك البشر وأدنى الناس في مملكته، بينما كيفية تنزل الوحي أمر عظيم يفوق تصوراتنا ومداركنا، وعظمة الوحي وعلو مقامه يعكسه الدور المحدد لكل نبي مبلغ، إذ يقتصر دورهم على تلقيه بكيفية شاء الله ألا نعلمها، وتبليغه بلغة مفهومة بلسان قومه، ثم يقوم بتفعيله عمليًا بإعطاء القدوة من سيرة النبي المبلغ الخائف المشفق من ربه.

والأنبياء هم الوسطاء المتفرغون تمامًا لهذه المهمة العظيمة والمؤمنون عليها بين الله وخلقهم، إنهم لا يحققون من وراء ذلك هدفًا سياسيًا، ولا مكسبًا ماديًا ولا موقعًا اعتباريًا خاصًا، قد توحد شعارهم على التوحيد الخالص لله والاستقامة إليه واستغفاره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فالرسول وإن كانوا سادة عباد الله إلا أنهم عبيد مخلصون لله، يأتمرون بأمره، وينتهون عند نهيه، أفنوا أعمارهم في التبليغ، أدلة على المؤمنين رحماء بينهم، أعزة على الكافرين أشداء عليهم، هكذا وصفهم القرآن: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إنها مشيئة الله وقدره وقدرته أن خلق الناس ومن رحمته أنه أرسل إليهم رسلاً تترى، يقيمون أمور الناس في الدنيا الفانية كي تستقيم حياتهم الأبدية في الآخرة الباقية، لا يفكرون في مصالحهم الذاتية في الدنيا، فهل سمعت أن رسولاً قد أقام لنفسه مملكة أو إمبراطورية، وأورثها ذريته من بعده، كسروية كانت أم قيصرية؟ فالأنبياء كلهم من أدنى الناس بمعايير الدنيا المادية وزخرفها، منهم الحداد والنجار والصانع وراعي الغنم، وظيفتهم الأساسية هي التبليغ تحت مرأى ومسمع الوحي الذي يريهم، ويوجههم، كما قال الله لموسى: ﴿وَلَمَّا صَنَّ عَلَىٰ عَيْتِ﴾ [طه: ٣٩].

الرسل وجدال قومهم

بالتأمل المتعقل الهادئ، سندرك أن الله قد قدر لنا أسهل وسيلة لتلقي رسالته ووحيه باختيار الأفضل من البشر والإيحاء إليهم ليعلوا قومهم بلسانهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] فالمؤمنون بهم تلقوا الرسائل بالقبول والتسليم، بينما انبرت فئة رافضة للحق ليس إنكاراً له وإنما استكباراً وعلواً وعتواً كبيراً، فتقدموا بطلبات لا تنتهي، ولا ينتظرون تأويلها ولا تنفيذها، بل كانت لذات الجدال والعبث، فقالوا: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ أَوْ نُرِي رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١] وتلك حالة لا يمكن وصفها إلا بما قال الله عنهم في ختام الآية: ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] وقالوا أيضاً: ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٨] فردّ عليهم القرآن، مستنكراً عليهم كيف يطلبون الأشد لبساً وتعقيداً، وقد جاءهم بشر مثلهم بلسانهم: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩].

ولم يقف أهل الجدال عند هذا الحد، بل طلبوا أن تفجر لهم الأرض ينابيع، وأن يكون للنبي جنة فيها الماء يتفجر أيضاً، وأن يأتي لهم بالله ويأتي بالملائكة، أو يسقط عليهم السماء، أو يرقى في السماء، ثم قدموا تكذيبهم له قبل أن يفعل فيها لو فعل من منطلق تحديهم، فقالوا: لن نصدقك حتى تأتي بكتاب يثبت أنك صعدت إلى السماء! طلبات مفتوحة ليس الهدف تحقيقها، وإنما إشغال الموقف بالجدل، قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝١٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ حِلَالَهَا تَفْجِرًا ۝١١ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝١٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفِقَ فِي السَّمَاءِ ۚ وَكُنْ تَؤْمِنُ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤهٗ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] فكان الجواب لهم هو الإعراض والاكتفاء بهذا الرد: ﴿ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] إذ كيف يستغرب عاقل أن يرسل رب البشر إلى البشر بشراً مثلهم، ثم يطلبون ملكاً من غير جنسهم؟ فلو كان أهل الأرض ملائكة يمشون عليها كما يمشي الناس، لكان رسولهم ملكاً من جنسهم أيضاً، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلٰٓئِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥].

لم كل هذا الجدل والحيرة من أمر الوحي؟ كان يكفيهم استحضار حقيقة أن الأمر كله لله، فهو الذي يصطفي من الناس رسلاً، وجميعهم مثلنا بشر لم يكن أحد منهم ليعلم أنه سيكون رسولاً أو نبياً عند ولادته حتى يأتيه الوحي في مراحل متأخرة، فيما عدا عيسى عليه السلام أن تكلم وهو في المهد، وتلك معجزة استثنائية من معجزات الكون التي لا تخضع لقانون ولا منطق دنيوي أن يتكلم المولود في يوم ولادته، أما ما سوى ذلك فبشرية الرسل قائمة قبل الوحي وبعده، فرجل مثل محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، الذي عرف بهذا الاسم قد بلغ الأربعين من عمره دون أن يعلم أنه سيكون محمداً رسول الله ﷺ، والوحي لما نزل عليه لم يكن إشعاراً ولا محاورَةً ولا إخباراً، بل كان تنزيلاً وتكليفاً عظيماً، خاف من الموقف المفاجئ في أول الأمر، فهرع إلى بيته يقول: **دثروني زملوني**، هذا هو الوحي الذي أول من خضع له هو النبي نفسه؛ كي يقتدي به أتباعه ومن بعدهم، فيخضعون جميعاً لله الواحد القهار، فيصطفون خلف نبيهم متوجهين إلى الله الذي يقول لرسوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

مغالطات المشككين في الوحي

من طبيعة الإنسان السليم أن يتلقى الخبر بالتصديق أو التكذيب أو التوقف بحسب الأدلة والبراهين والمنطق السليم، ولكن أن يكون الإنسان متوتراً من كل ما هو وحي، فيجعل الأصل نفيه إلا أن يثبت له وفق أدلة تعجيزية يفرضها، ويرفض نتيجتها مقدماً، فهذا خلل في ميزان تصحيح الأخبار وقبولها، لقد أخبرنا الله عن نوع غريب من البشر ليسوا باحثين عن حق ولا متلمسين لحقيقة بل هم جاهزون لرفض كل حجة وبرهان حتى لو مكنهم الله من الصعود إلى السماء، وفتح لهم باباً فيه إلى ما وراءه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥] فلا تنتظر من هؤلاء موقفاً منصفاً من خبر السماء، وكن واثقاً مطمئناً بالحق الذي تحمله، ولا تكثرث بما قد تسمع من وجود من

يشكون ويشككون في الرسالات عن سبق إصرار بالرفض، وخاصة بنبوته محمد ﷺ، أو بثبوت القرآن ممن يطلقون على أنفسهم مفكرين أو مستشرقين أو علماء حضارات.

يجب أن تحترم أيها الإنسان، عقلك قبل أن تطلب من الآخرين ذلك، حافظ على كيانتك ومقامك وشخصيتك المعتبرة، فاختر لنفسك الموقف والقناعة المنسجمة مع طمأنينتك دون الالتفات إلى الآخرين، لا تكن إمعة يستخف بك كل ساقط ولاقط، عليك أن تفعل عقلك الذي وهبك الله، ففكر به وتأمل جيداً، ولو فتشت عن حجج هؤلاء المشككين لما وجدت معهم شيئاً يستحق الاهتمام سوى النفي بلا برهان، إننا نعرف القرآن جيداً، ونعرف إعجازه، ونعرف النبي الذي أنزل عليه القرآن، ونعرف صدقه، فهل يريد المشككون أن يخبرونا عن (محمد) الطبيب وعالم الوراثة، وقد حرم القرآن الزواج من أقرب الأقارب الأم وال بنت والأخت والعمة والخالة، متطابقاً مع ما توصل إليه العلم الحديث من خطورة ظهور الأمراض الوراثية من زواج الأقارب، التي تختفي تماماً مع الابتعاد عن الأقارب، وتظهر اليوم بنسبة أكبر من أقرب نقطة مباحة، أي زواج بنت العم الواقعة على الحد الفاصل وراثياً! ولا يعني هذا ربط النص بالعلم مطلقاً، بل الأصل الرجوع إلى النص عند التعارض لأنه أبقى بينما العلم يتغير؟! وما المؤهلات العلمية التي - بحسب زعمهم - جعلت (محمدًا) يحاطبنا بهذا النص المرصوص رصًا لفظًا ومعنى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِمَّنْ أَرْضَعْتُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَّيْتُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] إن لم يكن ذلك وحياً منزلاً من ربه ﷻ؟!!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن (محمد) الاقتصادي والقانوني، عندما نجد في القانون التجاري الحديث أن الأعمال التجارية تثبت بجميع طرق الإثبات من إقرار وشهادة وقرائن ومحركات عرفية أو رسمية ودفاتر تجارية، ولا يشترط فيها الكتابة لحاجة الناس إلى المرونة بالتعامل السريع بالرضا والثقة، مقارنة بالأعمال المدنية التي توجب

القوانين كتابتها، لقد نزل الوحي قبل مئات السنين من سن هذا القانون العالمي، يلزم الناس بإثبات القضايا المدنية كالدين بالكتابة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] بينما يكون أكثر مرونة في الأعمال التجارية، فيعفيهم من الكتابة حتى لا تعطل التجارة السريعة، فيتعثر الاقتصاد: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] أليست هذه قواعد عامة ونصوصاً في القانون المدني والقانون التجاري العالمي اليوم يحدثنا عنها القرآن قبل أن يتقدم من يُسمّى اليوم العالم المتقدم، وقبل أن يعرف الناس الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري؟!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن محمد الفلكي، عندما يجتمع أشهر علماء الفلك يحاولون تفسير نشوء الكون، فلا يصلون إلى أكثر من نظرية الانفجار العظيم التي افترضوا فيها أن الكون يتمدد منذ انفجاره الأول منبسطاً كأنه صحيفة، وأن تمدده سيصل إلى نهايته، ثم يبدأ ينكمش مرة ثانية، فينتهي العالم إلى نقطة البداية، وقد يكون القرآن سابقاً في توضيح هذه النظرية أكثر مما توصلوا إليه، وذلك قبل ولادة هؤلاء العلماء وولادة آبائهم وأباء آبائهم لعشرين جيلاً أو أكثر والوحي ينزل وفيه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] علماً أننا لا نجزم بمطابقة هذه النظرية ولا أي نظرية علمية مستحدثة لنص قرآني محكم، فالنص ثابت راسخ مع الزمن، والعلم يتجدد ويستدرك عليه، وهذه الظاهرة الكونية قد تكون متوافقة إلى حد كبير مع مفهوم النصوص حتى الآن، والله تعالى وحده الأعلم.

وهل يريد المشككون أيضاً أن يقنعوا ذوي العقول السليمة، وهم يرون البشرية جمعاء تتنافس لتخترع الساعة بحجمها الصغير جداً، وتتصارع كبرى الشركات العالمية للوصول إلى أكثر الساعات دقة وصلاًحاً، ومع ذلك إخفاق متواصل بدليل وجود ملايين محالّ الصيانة والضمان للساعات، وأعمار أرقى وأحكم ساعاتهم المتكررة أقصر بكثير من عمر الإنسان القصير أصلاً، بينما القرآن المنزل على محمد الأمي يخبرنا عن حركة هذه الأجرام السماوية الهائلة المنتجة للزمان بدقة متناهية بحركتها ودورانها،

فالأرض تدور حول نفسها بساعة زمنية في غاية الدقة، ولا يرد فيها الخلل مطلقاً على الرغم من ضخامتها الهائلة، بل الشمس والنجوم والمجرات الأضخم منها بكثير تسير هي الأخرى في مسارات زمنية لا تتقدم، ولا تتأخر أبداً، كلها تجري حولنا بحسبان دقيق لا تتقدم جزءاً من الثانية، ولا تتأخر، وكل هذا يحدث في الوجود بلا متابعة ولا ضمان ولا صيانة، وهذا خبر حق بلغه لنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام، عندما تلا علينا قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُحْسِبَانِ﴾ [الرحمن: ٥].

ليعلم المشككون في الوحي أننا نتحدث عن أمر تتصاغر أمامه كل الموجودات والأفكار والخيالات، ومقامه أعلى شأنًا من مقام النبوة، بل النبي نفسه محتاج إلى الوحي وإلى التثبيت بالوحي أكثر من غيره، شاء الله تعالى بحكمته البالغة أن يكون سيد الأولين والآخرين أمياً لا يعلم شيئاً من المعارف المتميزة قبل النبوة، فلا علم له بالتاريخ، ولم يسمع بقصص من كان قبله، ولا علم له بالجغرافيا والمحيطات وظلماتها والقارات ومتاهاتها، ولا الرحلات الاستكشافية والإبحار، والتجارب العلمية، ولم يكن شاعراً ولا كاهناً، فأوحى الله إليه من الأخبار والحقائق والنصوص والبلاغة ما شاء سبحانه، وقصّ عليه من القصص ما يثبت به فؤاده، وما لم تكن معروفة عنده ولا عند قومه قبل الوحي، بل لم تكن معلومة عند أهل الكتاب في حينه.

قص الوحي عليه قصة أبناء يعقوب الأحد عشر الذين اجتمعوا اليمكروا بأخيهم النبي يوسف عليه السلام، ثم قال لرسوله في ختامها ممتناً عليه بهذا الخبر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقص عليه قصة موسى مع صاحب مدين، وما حصل من سقيا البنتين ثم زواجه من إحداهما التي جاءتته تمشي على استحياء لتقول له: ﴿إِنِّي أَدْعُوكَ لِجَارِيَتِكَ أَجْرًا مَا سَفَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فمكث في أهل مدين، ثم ما حدث له بعد أن سار بأهله، ورأى نارا في الوادي ليجد عندها النداء والوحي من جانب الطور إلى نهاية القصة، ليخاطب الله النبي ﷺ في ختامها بهذه الآيات التي نقشعّر منها جلود المؤمنين إعجاباً وإكباراً وإيماناً واستسلاماً: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ

مَدِينَتَ تَنَلُّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَنَكُنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

[القصص: ٤٤-٤٦]. ثم قص عليه قصص آل عمران وخلافهم حول مريم ومن يكفلها، وقال له بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] وهكذا كلما أخبره الله بغيب لم يكن معلوماً عند البشر جميعاً كان ذلك منةً من الله تعالى ليس عليه فحسب بل عليه وعلى قومه، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. فيا أهل العقول والحجا، كيف مع هذا السياق الباهر لكل عقل يكون القرآن من تأليف محمد كما يزعم الأفاكون المفترون من مشككين ومستشرقين؟ أما نحن فنقول: آمنا به كل من عند ربنا، والمنة من الله علينا، أن هداانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هداانا سبحانه.

المشكون وصخرة العقل!

رفقاً بقولنا وأفهامنا وأدमितنا يا أيها العابثون بالحقائق الغيبية، لم يكن في مكة جامعات علمية ولا مراكز بحوث فلكية أو جغرافية ولا مراكز طبية عندما نزل الوحي فيها، فمن أين أتيتم بشبهاتكم المزيفة؟ أمثلة كثيرة يستحيل حصرها تدحض كل شبهة تشكيك في الوحي والنبوة، يستحيل معها أن يكون (محمد) الأمي مصدرًا لتلك المعلومات الكونية والأخبار والأنباء التي بهرت العالم اليوم من تلقاء نفسه دون تدخل الوحي مباشرة، حقيقة مدوية رغمًا عن أنف كل مكابر وحاقد بعدما يزيد على ألف وأربع مئة عام، ولا تزال النبوة معجزة معلوماتية وعلمية يقف لها إجلالاً كل عاقل مستبصر، وربي، إننا بوصفنا مسلمين مع كثرة استهدافنا من سهام الأعداء أصبَحنا نبالغ في التنزل للخصم في الجدال بلا حدود ولا ضرورة أحياناً، وما ذاك عن حاجة إليهم ولا زهداً منا بأعلى ما نعتقد من دين عظيم عليه نحيا وعليه نرجو أن نموت،

وإنها طمعاً في هداية هؤلاء الضالين ونجاتهم لأنفسهم، وأما من هداه الله منا للحق فلن يضره بعد هداية الله له ضلال الضالين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِينِيبِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فتوكل على الله يا عبدالله، واعلم أنك على الحق المبين، وعليك بنفسك أولاً، ثق بربك وبدينك، بل ثق بعقلك الراشد، ولا تلتفت إلى ما يثيره المستشرقون والمشككون حول أصول ديننا وثوابته ومقام ربنا ونبينا وقرآنا، لقد قال أبواؤهم من قبل بكل غطرسة وصدود: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإذا علمت بهدف مشروعهم ابتداء وهو التشكيك واللغو والبلبة، فلا يستخفونك، واصبر لوعده الله الحق، وانتظر: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَكَ﴾ [الروم: ٦٠] وواصل السعي الحثيث إليه، مستأنساً بحال الرسول ﷺ الذي ما فتى قومه يثبطونه باتهامهم له بالكهانة والجنون، فجاءته المؤازرة والدعم القوي من القوي العزيز ليمضي قدماً في رسالته، ولا يتلفت لأحد من المخذلين: ﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

ثم تذكر أيضاً أن من عقلاء المستشرقين من جاؤوا ليشككوا المسلمين في دينهم، فلما وصلوا إلى صفاء المنبع، اصطدمت عقولهم بالحق، وأظهر الله لهم دينه على الدين كله، وما كان أمامهم إلا أن يسلموا ويحسن إسلامهم^(١)، وهذه نتيجة طبيعية لذي العقل السليم إذا واجه نصوص الوحي وحقائقه التي تطابق عقله السوي وفطرته، وذلك هو دافع الدمع الذي سال من أعين القسيسين والرهبان الذين سمعوا الوحي من محمد ﷺ، فعرفوا أنه الحق، فأمنوا، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين على هذا الحق الذي وجدوه، فأثنى عليهم القرآن بآيات تتلى إلى يوم

(١) هناك عدد كبير من المستشرقين الذين قادهم البحث إلى الحق مثل المستشرق السويسري (جون لويس بوركهارت) الذي اعتنق الإسلام عام ١٨٠٩م وغير اسمه إلى إبراهيم والمستشرق الفرنسي (الفونس دينيه) الذي أسلم في الجزائر عام ١٩٢٧م وتسمى بناصر الدين وحفر قبره بنفسه في الجزائر وأوصى بدفنه فيه في أي مكان أدركه الموت فتقل من باريس إلى مقبرة الجزائر (ليبولد وايس) الذي أسلم أواخر القرن التاسع عشر وغير اسمه إلى (محمد أسد) الذي أثنى مكتبة المسلمين بكتب قيمة في مقدمتها كتابه الشهير (الطريق إلى مكة) وغيرهم.

القيامة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَكُوا آعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ [المائدة: ٨٢-٨٣].

أرقى مشروع تربوي

لو أن جميع علماء التربية في العالم وعبر التاريخ اجتمعوا، فألفوا كتاباً تربوياً متميزاً، وبقي هذا الكتاب مئة سنة وهو مرجع لكل معلم دون أي تعديل عليه، كيف سيكون مقام ذلك الكتاب في نفوس الناس؟ فما بالك إذا بكلام خالق كل شيء بمن فيه هؤلاء التربويون وعقولهم التي فكروا، وألفوا بها كتابهم، كيف سيكون مقام كتابه هو وكلامه ﷺ في نفوس الناس الأسوياء، والحقيقة أن المقارنة هنا لا تجوز ولا تقبل؛ لأنه لا أقوم من هذا القرآن ولا أسمى منه هداية، ومن أعظم نعم الله على الإنسان بعد خلقه أن تواصل معه مباشرة بالوحي عبر الأنبياء وبالأخلاق العظيمة للأنبياء وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله ﷺ، الذي كان خلقه ترجمة عملية للقرآن (كان خلقه القرآن)، ومن أجمل ما يرد في الخطاب القرآني أنه لم يكن صادمًا ولا مفاجئًا ولا متعارضًا مع الفطرة البشرية، بل راعى جزءًا كبيرًا من تدرج عادات الناس، ومن ثم أخذ بأيديهم في غاية الرفق والشفقة، إلى التي هي أحسن من القول والعمل، ولو تأملنا منهجية الخطاب القرآني في بناء الإيمان ابتداء ثم العمل بحسب طبيعة مرحلة التوجيه، لوجدناه يمر بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى، يبدأ الوحي بتوجيه الخطاب العام إلى عموم الناس، فيدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة أولاً، وهذه مرحلة تأسيسية في غاية الأهمية لما بعدها، إذ لا فائدة من أي خطاب آخر تكليفي أو تشريعي حتى لو ترتب عليه أعمال كالجبال ما لم يتم الاستجابة للخطاب الأول، ولذلك تتكرر الآيات الكريمة التي تخاطب

الناس بالإيمان قبل العمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] لأن العمل بلا إيمان مصيره البوار والخسارة: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فالإيمان أولاً، وهو الأصل العظيم بل أصل الأصول، كلها في فهم الوجود وتفسير مآلاته ومنه ينطلق العمل والتكليف والنجاة في الدارين، وهذا من أهم أسباب التركيز عليه وتكرار التذكير به في جميع فصول هذا الكتاب.

المرحلة الثانية، خطاب التثبيت ورعاية النبتة الإيمانية الأولى وترسيخ قواعدها وتحصينها من الشرك والكفر والشك والإلحاد، وهذه جرعة تحصين وقائية ضرورية جداً، ومن شواهد أهميتها أن الرسل أنفسهم على الرغم من علو مقامهم الإيماني واصطفائهم الرباني، احتاجوا إلى هذا التذكير والتثبيت والتوجيه، وهذا الخطاب لا يمكن أن يسبق خطاب حسم مسألة الإيمان الأساسي بالوجود والغيبيات، سواء أكان ذلك في الدنيا (الرسل والوحي والمعجزات)، أو في الآخرة (عذاب القبر ونعيمه والبعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ورؤية الله ﷻ)، ولعلك تدرك أخي القارئ الكريم، أن موضوع هذا الكتاب يدور حول هذه المرحلة، وهي رعاية هذا الإيمان الموجود أصلاً وتحصينه من الوسوس والملوثات الفكرية.

المرحلة الثالثة، على أساس ذلك الإيمان الراسخ والمحصن من الأخطار والشكوك يصدر بعد ذلك خطاب التكليف بالعبادات والشعائر والمعاملات ونظام الحياة ما يقتضي توجيه الخطاب الى المؤهلين لساعه والأخذ به ممن هم في قمة التهيئة الإيمانية والفكرية والعقائدية والثقة بالله الذي ينتظرون لقاءه، انتظاراً يقينياً لا شائبة فيه ولا شك، بإيمان راسخ يجعلهم يتلقفون كل أمر، ويسارعون في تطبيقه، ويستبشرون به، دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج منه، ويحذرون من كل ما لا يرضيه فيجتنبونه، وهذا سيكون نعيماً متمتعاً عند من وفقه ربه، فتدرج وفق هذه المراحل، التي ستجعل إيمانه راسخاً رسوخ الجبال الشاخات بفضل الله.

ومع أنه يرد الفتور في العبادات بين الناس إلا أن أي خلل في المرحلتين الأوليين سيضعف هذا البرود والثقل، بينما تكون العبادات لذيدة وجزءاً من سعادة الدنيا قبل الآخرة عند المؤمن الذي يرجو لقاء ربه موقناً بذلك، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿البقرة: ٤٥-٤٦﴾ إن السر العظيم في الشوق إلى الطاعات هو هذا الخشوع المشار إليه في الآية، وهو سبب قول الحبيب ﷺ: «يا بلال، أقم الصلاة، أرخنا بها»^(١).

(١) الحديث رواه أبو داود (٤٩٨٥) وصححه الألباني عن سالم بن أبي الجعد أن النبي ﷺ قال: «يا بلال، أقم الصلاة، أرخنا بها».